التربية وطريقنا الجديد الى النصر

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

مدخل :

بعد المعركة ، بعد النكسة ، قد ينقشع البصر وتتفتح الرؤية وتنجلي المواقف .

وقد تزداد الامور ابهاما وخواء وتضاليلا ، وتطوقها سحب جديده من الظلام .

ومهمتنا ان نعمل للاولى لا للثانية . ان ننتشل قدمنا من النكسة عن طريق الوضوح في كل شيء وتبين معالم المسير .

لقد كان الفكر في بلادنا العربية ، منذ سنوات ليست قصيرة ، في معزل عن دوره الحقيقي . ولم يستطع — لاسباب عديدة — ان يضطلع بمهمته الاصيلة ، مهمة الشرح والتوضيح والتوجيه الواعي والقيادة الجريئة العاملة للامور .

لقد كان الفكر — على حد قول برغسون — مسدودا بالعمل . لقد كان معطلا الى حد بعيد بضرب من الدوار الذي خلقه عمل سياسي غير ناضج المعالم . وقد كان تابعا لا قائدا ، مسودا لا سيدا . ذلك ان طرازا من العمل السياسي والاجتماعي اتصف في كثير من الاحيان بظاهر من الجدية والجرأة والفهم ، استطاع ان يمتص العمل الفكري وان يبتلعه وان يخضعه الى حد بعيد لارادته بل لارهابه . وكان الفكر — وسط هذا التيار الجارف الذي لا يخلو من مظاهر الخداع الى حد بعيد — يفكر دون ان يفكر ، ولا يعدو في الواقع ان يعكس تيارا لم يشارك في صنعه الا بمقدار يسير .

ولهذا كان العمل يسير على قدم واحدة ويغربل في مشيته . ولهذا كان عاجزا عن أن يبلغ كامل مداه ويعطي عطاء حقيقيا : ولهذا كان الخذلان وكان الضياع الذي نشهده .

وليس من جديد ان نقول ان العمل بلا نظر يظل اعمى ، كما ان النظر بلا عمل يظل اجوف .

والمسألة المسألة ان نحقق التوازن بين التكامل والاندماج ، بين النظر والعمل ، بين الفكر وحركة الواقع .

المسألة كلها ان ندرك ان الحياة — في اي ميدان من ميادينها ، تستلزم اجتماع العمل ، الثري بالتفكير وتجربة الفكر ، الى الفكر المنبثق من معاناة الواقع الحي والتمرس بالعمل .

كما لا نقول جديدا اذا قلنا ان العمل — سياسة كان او اجتماعا او اقتصادا او تربية — لا بد ان يكون تجسيدا للفكرة الحية ، لا بد ان يكون هو الفكرة نفسها في حال حركتها وانطلاقها وتحققها وانقلابها الى واقع ، لانها ابنة الواقع ولسانه .

ان مهمة الفكر بعد النكسة الا يعاود سيرته قبلها ، وان يدخل الساحة في جرأة ووضوح ، وان يسعف العمل ويمده بالوقود اللازم ، وان يأبى الا ان يكون له دوره الحق ، دور القائد للمعركة ، تلك المعركة التي لا بد ان تكون معركة الفكر والعمل معا ، معركة المفكر والسياسي في آن واحد ، والتي لا بد ان نبرز فيها دور القيادة الفكرية بعد طول احتجاب وابعاد .

تلك كلمة اولى لا بد من قولها بين بدي حديثنا عن دور التربية في معركتنا الجديدة . وهي في واقع الامر من قلب الحديث وصميمه ، فالتربية تعني الفكر اولا وتعني تربية هذا الفكر التربية التي تجعل منه نصيرا للعمل المنتج .

وعندما نمنح التربية دورها — بل دورها الراجح — في معركتنا الجديدة فنحن في واقع الامر نعيد مكرورا من القول ونرجع بدهيات من الامر . فلقد غدا من الامور البينة اليوم — بعد الدراسات المحدثة الكثيرة التي قام بها رجال التربية ورجال الاقتصاد والاجتماع — توكيد حقيقة اساسية ، هي ان رأس المال المنتج المثمر في اي بلد ، هو رأس المال الانساني ، نعني الانسان ، وان احسن استثمار وتوظيف لرؤوس الأموال المادية هو ميدان التربية . فتوظيف الاموال في تربية الناشئة هو الذي يعود على اي بلد بالتنمية الاقتصادية الحقيقية في شتى جوانب الحياة الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها . ذلك ان التربية — ولا سيما في مفهومها الحديث — تعني تكوين القوة العاملة اللازمة لهذه الميادين ، واعداد الخبراء والاخصائيين الذين يستطيعون وحدهم — بفضل خبرتهم الفنية ان يخرجوا من الأرض ثمراتها ومن الطبيعة خيراتها ومن الاقتصاد كله افضل نتاجه وعطائه . وليس المجال مجال الحديث عن الدراسات العديدة التي قامت على قدم وساق منذ نيف وعشر سنوات في شتى انحاء الارض ، لتقيم الدليل تلو الدليل على ان للتربية مردودا اقتصاديا و « عائدات اقتصادية » وان الثمرات المالية التي نجنيها من استثمار الاموال عن طريق التعليم تفوق الثمرات التي نجنيها عن طريق استثمار هذه الاموال في اي مشروع صناعي او زراعي او تجاري . ذلك ان الاصل في انتاج اي مشروع صناعي او غيره توافر الخبرة الفنية القادرة

على حسن تسيير ذلك المشروع . ولا قيمة للمصانع وسائر المؤسسات اذا لم نوفر لها اليد العاملة الخبيرة في شتى المجالات الفنية والادارية وغيرها . واذا كان انشاء المصانع وبناء الالات او شراؤها امرا سهلا ، فان بناء الانسان اللازم للمصانع واللازم لتسيير الالات هو الصعب وهو الهام .

من هنا كانت العقبة الكأداء التي واجهتها وتواجهها معظم الدول التي انطلقت حديثا في طريق التنمية ـ ومن بينها الدول العربية ـ افتقار الى الطاقة العاملة المهيأة الخبيرة ، القادرة على قيادة عملية التنمية . وما هي عملية التنمية اولا واخرا ؟ انها الجهد العقلي والخبرة الفنية والدراية العلمية التي نصبها على موارد الطبيعة من اجل استنباطها على اكمل وجه . انها تسليط اليد الصناع والعقل المبدع على امور التنمية . ومهمة التربية اولا واخرا استنباط هذه القدرة المبدعة الخلاقة ، وتزويدها بالمهارة الفنية واعدادها من اجل القيام بدورها الصحيح في دولاب الانتاج الاقتصادي والاجتماعي الكبير . ان من حق اقتصادي فرنسي مثل «دومون Dumont ان ينصح الدول الحديثة ، ولا سيما الدول التي تعزم على السير في طريق اشتراكية ـ ان تفكر اولا وقبل كل شيء بعملية الاعداد ، اعداد الخبراء والفنيين اللازمين للتحويل الاقتصادي والقادرين على قيادة عملية التنمية السريعة الناجعة . وقد بين اكثر من كاتب اقتصادي ان **العقبة الاساسية التي تقوم في اكثر من دولة تجرب السير في طريق النمو السريع ، هي افتقارها الى الانسان المدرب الخبير ، والى التربية التي تعد كل انسان ليكون الشخص الصالح في المكان الصالح** . ومثال الصين الشعبية من اوضح الامثلة على ما نقول . لقد كانت الصعوبات التي لقيتها في سني عمرها الاولى حاجتها الكبيرة الى الفنيين والاخصائيين ، رغم المساعدات السوفياتية التي قدمت لها عددا كبيرا من الخبراء في بداية الثورة . ولم تستطع ان تتغلب على الكثير من صعوباتها الاقتصادية وتنطلق في طريق التصنيع والتنمية السريعة ، الا عندما غيرت نظامها التربوي وقلبته راسا على عقب ، واخذت بفكرة « تصنيع التعليم العالي » ، ووضعت خطة علمية لاثني عشر عاما (تنتهي هذا العام) هدفها تخريج ١٠٥٠٠ عالم وحوالي مليوني فني . وهكذا استطاعت بفضل هذه السياسة التربوية المرسومة المدروسة ان تخرج عددا من المهندسين يبلغ حوالي ٧٥ بالمئة مما يخرجه بلد كالولايات المتحدة يعد من اكثر البلدان عطاء في هذا الميدان . لقد ادركت الصين ان من اللازم ان تكون التربية ـ في انطلاقتها الجديدة ـ اداة لسد حاجات البناء القومي والتنمية الوطنية . ولهذا احدثت ذلك التغيير الجذري في معاهدها ، وعنيت تلك العناية الكبرى بما دعته باسم «الاختصاصات» ، تعني الاتقان الفني في كل ميدان من ميادين التخصص الضيقة . ومهما يؤخذ على مثل هذا النظام افراطه في هذا المجال ، يظل من الصحيح ان هذه السياسة التعليمية الجديدة هي التي استطاعت ان تخرج الصين من تخلف القرون لتنقلها الى مستوى حياة القرن العشرين .

ان هذا كله يعني ان دور التربية هو الدور الحاسم في بناء أي بلد ، وان بناء الانسان ينبغي ان يكون هدف معركتنا الجديدة ، وان اهمال هذا البناء هو احد العوامل الاساسية في تخلفنا وفي نكساتنا .

غير ان هذا يعني في الوقت نفسه ان التربية المرجوة والقمينة بأن يكون لها مثل هذا الدور ليست اي نوع من التربية ، بل لا بد ان تكون تلك التربية المرتبطة ارتباطا وثيقا بحاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، والعاملة على اعداد المثقفين اعدادا يلائم حاجات اليد العاملة في الاقتصاد المنشود . صحيح ان التربية كما قلنا منذ البداية افضل استثمار لرؤوس الاموال . ولكن هذا القول لا يصدق الا اذا وضعنا في التربية منذ البداية ما ينبغي ان نضعه فيها ، اي اعداد الخبراء اللازمين للخطة الاقتصادية والاجتماعية التي نرجوها . فنحن لا نستخرج من الاشياء الا ما نضعه فيها اولا . والتربية ليست في حد ذاتها عصا سحرية تغير البلاد والعباد من تلقاء ذاتها ، ولا هي المفتاح الذهبي للنمو في اي حال من الاحوال . انها تكون كذلك اذا اردنا لها ذلك ، اي اذا اردنا ان تكون اداة حقة من ادوات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، تخرج ما تحتاج اليه هذه التنمية ولا تعد مثقفين عاطلين او عاجزين يغدون من اهم عوامل النقمة الاجتماعية والثورة الحاقدة وسائر ادواء البطالة .

من هنا كان لزاما ان نبحث في اهم مقومات التربية المنشودة الجديرة بتحقيق اغراض التنمية والقمينة بشق طريقنا الجديد الى النصر .

ونقول منذ البداية ان التربية التي نعنيها تشمل ميدانين اساسيين : ميدان التربية المدرسية التي تتم في مراحل التعليم المختلفة ، والتربية الخارجة عن نطاق النظام المدرسي الرسمي والتي تتم عن طريق الثقافة الشعبية وسائر وسائل التربية التي تقدمها للكبار .

وبدهي أن تكون الاهداف في كلا الميدانين واحدة في الجملة . غير ان الوسائل لا بد ان تختلف . ورغم اختلاف هذه الوسائل سوف نتحدث عن الجانبين معا ، تيسيرا واقتضابا .

اهداف التربية المنشودة :

ان الخوض في مثل هذه الاهداف قد يتطلب منا مجلدات براسها . وما هذا هدفنا في مثل هذا المقام . فالذي نريد ان نقف عنده هو الاهداف التي تعنينا اكثر من سواها في معركتنا الجديدة وتحقق لنا قبل غيرها ان ننهض من كبوتنا وندرك الطريق الامم الذي يوصلنا الى اهدافنا القومية ويجنبنا محنا اخرى .

وقبل الانطلاق في الحديث عن هذه الاهداف لا بد من كلمة . فقد يقول قائل ان هذه الاهداف التي سنتحدث

عنها تظل ـ على جلالها وشانها ـ اهدافا بعيدة المدى تستلزم زمنا غير قصير من اجل تحقيقها . في حين ان الوقت ليس وقت عمل بطيء وان الامور لا تنتظر وان العمل السريع الدائب هو مطلبنا في ظروفنا القاهرة .

وعند مثل هذا الاعتراض نحب ان نقف وقفة خاصة . انه ـ على الرغم مما يحمله من صدق النية وبراءة القصد ـ هو المسؤول دوما وابدا عن تنكبنا الطريق الصحيح وعن تخبطنا الطويل وعن نكساتنا المتكررة . فالطريق الصحيح ليس بالضرورة اقصر بعد بين نقطتين . والطريق الذي يبدو بطيئا ليس بالضرورة طريقا غير ناجع . بل العكس هو الصحيح الى حد بعيد . **فلا بد من البدء من البداية الصحيحة مهما تتطلب من جهد وعرق وزمن** . ولا بد من سلوك « الطريق ولو دارت » على حد قول العرب . ولا بد ان « نسلك الجدد » كي « نأمن العثار » . لقد تقضى ردح من الزمن نحاول فيه كل مرة ان نغذ السير وان نتعجل الامور وان نحرق المراحل ظنا منا ان الاحداث لا تنتظر ، فاذا بنا في كل مرة نقع نتيجة لذلك ـ في نكسة جديدة او نراوح في مكاننا على احسن تقدير . **ولقد آن لنا ان نغادر ، الى غير رجعة ، العقل النزق ، العقل الذي يريد ان يغير الاشياء بين عشية وضحاها** ، العقل الذي يريد ان يفعل كما تفعل العصا السحرية او خاتم المارد . آن لنا ان ندرك الظروف الموضوعية والشروط الواقعية وان ندرك ان **الجراة الحقة هي الجراة الواعية** التي تدرك هذه الاشياء ادراكا موضوعيا ، وتحاول تغييرها انطلاقا من ذلك الادراك . فللواقع قوانينه ، وللحوادث قوانينها ، وهي لا تغير بجرة قلم او بارادة لفظية ، بل تغير عن طريق معرفة تلك القوانين من اجل تشكيل الظروف تشكيلا جديدا قادرا على مغالبة تلك القوانين وتوجيهها الوجهة الصحيحة . ان القوة الحقة هي « المعرفة » ، كما قال « اوغست كونت » منذ القدم . وتغيير الطبيعة يكون باطاعتها اي بمعرفة قوانينها كما قال « بيكون » .

لقد اساء اسلوب حرق المراحل الى كثير من الدول السائرة في طريق النمو، الراغبة في تحقيق تغيير جذري في بنيتها الاجتماعية والاقتصادية . وكثيرا ما ادى هذا الاسلوب الى النقيض مما يرجى منه .

والتربية قد تكون عملا يتطلب زمنا ، ولكنها عمل عميق راسخ . والاهداف التي نرسمها لها هي الاهداف الواقعية بل السريعة ، لانها هي القادرة حقا على تغيير الواقع والوصول الى شاطىء السلامة .

لقد طال الجدل بين اصحاب النظر واصحاب العمل . وحسبنا ان نقول ان المسالة زائفة ، وان الامر ـ كما ذكرنا منذ البداية ـ امر دمج كامل بين النظر والعمل ، بحيث يتوافر السير على قدمين لا قدم واحدة ، وبحيث يحقق هذا الجمع العضوي بين المطلبين بلوغ اقصى سرعة مجدية وممكنة معا . ووظيفة التربية لا تعدو ذلك . وهي اذ تحفر عميقا في مجرى النفوس تحفر عميقا في مجرى الاحداث . وهي حين تتقن اعداد الانسان وتركض وراء هذا الهدف الاساسي تركض في الواقع وراء سائر الاهداف .

***

والان بعد هذا الاستدراك ، نستطيع ان ننطلق مطمئنين في الحديث عن الاهداف المرجوة للتربية المدرسية في معركتنا الراهنة .

(١) وواضح بعد كل الذي قلناه ان **تربية العقل المبدع الماهر فنيا** المتقن لروح العلم الحديث واساليب التقنية الحديثة يظل هدفا اولا من اهداف التربية المرجوة .

ان العقل في البلدان التي تخلفت عن ركب الزمن وعن ركب العلم الحديث والصناعة الحديثة ما يزال عقلا يعيش في عالم الالفاظ قبل ان يعيش في عالم الاشياء . والروح العقلية بسائر معانيها ما تزال بعيدة عن هذا العقل الى حد بعيد . والتكنيك الحديث خاصة ما يزال غريبا عن فكرنا . اننا نعرفه كشيء مجلوب ونعجب به اعجابنا بالسحر احيانا ، ولكننا لا نحيا ضمنه ولا يكون جزءا من بنياننا الفكري والنفسي . ان عالم التكنيك ما يزال ـ الى حد كبير ـ اشبه عندنا بعالم الاشباح ، نسمع عنه ولا نراه ، او نراه ولا نفهمه ، او نفهمه ولا نعانيه . واذا لم نوفق في خلق العقل المبدع التقني لم نوفق في شيء . فالالة التي نستخدمها في المصنع ينبغي ان نألفها ونعرفها ، لا ان تظل مجللة بالضباب كأنما تحركها اعمال الجان . والسلاح الحربي الذي نستخدمه في المعركة ينبغي ان تقوم صحبة وعشرة علمية وفنية بيننا وبينه بحيث نملكه ولا يملكنا ، ونستخدمه حيث نريد وكيف نريد وبحيث نستخرج منه اقصى مداه ، وبحيث نهب له المرونة فنعالجه في رشاقة وبراعة و « نؤنسه » الى حد بعيد ، بدلا من ان يظل وحشا يخيفنا اكثر مما يخيف اعداءنا . ومثل هذا القول يصدق في سائر مجالات الحياة الزراعية والتجارية وغيرها . ففيها جميعها ينبغي ان تقوم بيننا وبين الالة الفة ومعرفة وصداقة مردها الفهم وحسن الاستخدام وسيطرة الفن على الالة . ان الالة عمل فني لا تسيطر عليه الا دراية فنية .

وهذا يعني في لغة التربية اشياء كثيرة لا يتسع المجال للوقوف عندها ، ونكتفي بالمرور السريع :

انه يعني اولا وقبل كل شيء **العناية بالعمل اليدوي في المدارس منذ نعومة الاظفار وبالثقافة التكنيكية في سائر مراحل التعليم** . انه يعني ان نستبدل بالمناهج القائمة على الالفاظ مناهج قائمة على الاشياء ، على معاناتها ، على تجربتها . انه يعني ان نضع خطة للتربية تجعل من اهم اهدافها تكوين الايدي العاملة الفنية الخبيرة في شتى مجالات النشاط ، ولا سيما في مجالات التكنيك والصناعة . انه يعني أن نربط الانسان العربي بالعمل

والعمل اليدوي والتقني بشكل خاص ، فربطه بالعمل هو الذي يعني ربطه حقا بأخيه ووطنه واسنه . لقد ذكر « بن غوريون » فيما ذكر عند حديثه عما سماه بسنوات النضال في « اسرائيل » عن الدور الذي لعبه ربط المهاجرين الصهاينة بالعمل وبالارض . وبين خاصة ان الرواد الاوائل للصهيونية الذين قدموا فلسطين منذ ايام الحكم العثماني ـ وكان واحدا منهم ـ مارسوا العمل اليدوي والفني ، وانه مارس بنفسه العمل في حقول الكرمة وفي صناعة الخمور وساق المحراث في احدى المستعمرات ... وجميع الذين تحدثوا عن تجربة اسرائيل ، تحدثوا خاصة عن التعاونيات المعروفة « بالكيبونزيم kibboutzim » ذكروا دور العمل الزراعي والصناعي في ربط المهاجرين الجدد بعضهم ببعض وربطهم بالبلد الجديد الذي اغتصبوه . ومما لجأ اليه اعداؤنا في بناء انفسهم وصهر مجموعاتهم الشتيتة وتكوين قوتهم العسكرية العناية بمنظمات الشبيبة التي عرفت باسم منظمات « ناحال » التي تعد الشبان بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر اعدادا عسكريا بالاضافة الى اعدادهم للزراعة والعمل الزراعي . وبهذا تخلق منهم « جنودا مزارعين » و « مزارعين جنودا » .

هكذا يبدو العمل اليدوي والفني اداة مثلى من ادوات تربية جيلنا الجديد . انه يخلق اليد الصناع ، والعقل المبدع ، وروح العصر الحديث . انه يكون ذلك « العقل الذي في اليد » الذي يرى فيه رعيم الهند غاندي شيئا « يفوق العقل الذي في الرأس » . انه يعلمنا « فضائل استعمال الاصابع الخمس » التي تمنى غاندي ايضا ان ينظم قصيدة عصماء في مزاياها ، لو كان شاعرا. انه يعلم المواطن منذ الصغر ان يعمل مع العمال وان تتسخ يداه وان يحيا حياة العمال .

ورأس هذا كله ، ووراء هذا كله ، **الاهتمام بخلق روح الابداع ، روح الابداع التقني العلمي** ، وتعويد الشبيبة على الخلق والابتكار الفني منذ الصغر . أفلا يقرر كبار المربين واحدث المربين اليوم ان الهدف الاساسي من التربية في عصرنا الحديث ينبغي ان يكون خلق القدرة على الابداع Creativity ؟ افلا نجد في بعض المدارس الحديثة في العالم تعويدا للاطفال منذ المرحلة الابتدائية على القيام ببعض المشروعات الصناعية الفنية تحت اشراف مهندسين واخصائيين كبار يتعاونون مع المدرسة؟

وما نرانا في حاجة الى الادلة الكثيرة للبرهان على اهمية تكوين روح الابداع التقني لدى شبيبتنا ، ولا سيما في عصر العلم والصناعة . وحسبنا ان نقول ان تطور العمل في عصرنا ـ كما تدل الاحصاءات في مختلف بلدان العالم ـ يظهر بشكل واضح تزايد الحاجة الى الفنيين الذين يعملون بعقولهم وخبرتهم وابداعهم ، وتناقص الحاجة الى العمال اليدويين الذين يعملون بقواهم الجسدية وحدها . فقد ادى دخول الالة الى الصناعة والى الزراعة وغيرهما ، بل دخول « الاوتوماتية » الى الالة ، الى تناقص ضخم في الحاجة الى اليد العاملة الجاهلة وتزايد هائل الى اليد العاملة الفنية .

(٢) واذا كانت هذه التربية القائمة على العمل والدراية الفنية وروح الابداع شعار العصر وضرورة من ضروراته في كل مصر ، فانها في مثل بلادنا السائرة في طريق النمو اعظم شانا واجدر بالعناية .

ولا نقصد بذلك مجرد تخلفنا التقني الذي يلزمنا بمزيد من الاهتمام بالاعداد الفني والتكوين الصناعي والمهني وخلق الاطر الفنية الخبيرة اللازمة لتسيير عجلة التنمية ، بل نقصد شيئا اخر لعله لا يقل اهمية عما ذكرنا . نقصد تعريف المواطن العربي على حقيقة الكون وتغيير نظرته الى الاشياء ، عن طريق فهم هذا الكون وتلك الاشياء فهما علميا ، بل عن طريق ملامستها ومعاناتها واللعب بها . نقصد ـ اذا شئت ـ **ابعاد الروح السحرية والخرافية والاسطورية بشتى اشكالها وصورها ، واحلال العقل العلمي المصناع محلها ، عقل القرن العشرين .** فبلادنا ـ بسبب انتشار الامية وسوء التربية وسيطرة التربية اللفظية على التربية العملية العلمية التقنية ـ ما تزال الى حد بعيد تعيش في مرحلة شبه سحرية او شبه اسطورية . انها ما زالت كصاحب السحر والرقى يحاول التغلب على الاشياء باساليب لا تمت اليها بصلة ، لانه يجهل تلك الاشياء . انها ما تزال بعيدة في كثير من الاحيان عن ابسط قواعد العلم ، نعني مبدأ السببية والقول بان لكل نتيجة سببا . وما تزال على العكس قريبة من روح « المشاركة » التي يحدثنا عنها عالم الاجتماع « ليفي برول » لدى الاقوام البدائية ، والتي يرى فيها عالم النفس « بياجيه Piaget بعض سمات نفسية الطفل .

ولا تتجلى رواسب هذه الروح الاسطورية الخرافية عندنا في بعض الميادين فحسب او في ميدان فهم المبدعات والمكتشفات الحديثة ، بل تتجلى في سائر الميادين . ومن هنا يأتي خطرها . ففي حياتنا السياسية مثلا ما نزال نعيش الى حد بعيد في مرحلة **الايمان باسطورة البطل** القادر على كل شيء ، المالك لسيف عنترة ، المعصوم عصمة انصاف الالهة . وما نزال نؤمن بضرب من الخيال الذي يجعلنا نعتقد ان روح البطل تحمينا وتطوف حولنا وتبعد عنا الشر كما كانت آلهة الاقوام البدائية و « تواتم Totems » الشعوب القديمة تحل في كل مكان وتدفع الاذى والشر وتطرد الارواح الخبيثة . وهكذا نلقي بكل ثقلنا على البطل ، ونجعل من ايماننا به المربون الوحيد على واجبنا حياله وجعل مسؤوليتنا نحوه . ومن هنا نقيم بيننا وبين الواقع سدا، ونعجز عن تحليل هذا الواقع وعن ادراك الاخطاء التي ترتكب او طرق الضلال التي تتبع .

ومثل هذا يصدق على تفكيرنا الاسطوري في ميدان

آخر هو ميدان « الايديولوجيات » . فنحن ههنا ايضا ما نزال ننزع الى ان نؤمن بها والى ان نجعل الناس يؤمنون بها ايمانا سحريا ، كمقدسات غير قابلة للنقد ، وكمحرمات Tabous لا يجوز المساس بها . وهكذا يصل بنا الامر الى **عباده « الايديولوجيات » من اجل ذاتها** لا من اجل محتواها ونتائجها ، وبتر التفكر لها ولو انحرفت عن مجراها وافرغت من محتواها ومضمونها . وهكذا تغدو الايديولوجية التي هي اساس الثورة وطريقها شيئا فوق الثورة واهم من الثورة ومجمدا للثورة قاتلا لها . وبعبادتنا السحرية للايديولوجية هذه كثيرا ما نجعل منها — على حد قول ماركس — تبريرا وتتويجا رائعا للوحشية والاضطهاد . وبهذا ما تلبث الايديولوجيات ان تتقوقع على ذاتها او ان تغدو في احسن الاحوال راكده غافية « كالاميره النائمه » ، في عصر التحرك والتفجر والسرعة .

ان تنصيب الايديولوجيات كمطلق لا يقبل التحويل والنقد ، ضرب من الفكر الاسطوري الذي يحلو له ان يلجأ الى هذا التبسيط العجيب « المزدكي » « الماوي » فيقسم الكون قسمة ثنائيه سطحية الى خير وشر لا لقاء بينهما .

ولقد بين الكاتب الماركسي الفرنسي الشهير « روجيه غارودي Koger garaudy » في كتابه الجديد عن « ماركسيه القرن العشرين » كيف وقعت الستالينية في هذا التجميد للعقيده وفي هذه النزعة الاثباتية « الدوغماتيه » التي افسدت على الشيوعية ما افسدت . وبين خاصة كيف ان هذه النزعة المؤمنة المطلقة هي التي ادت الى الاضطهاد والى الحكم البوليسي القاسي ايام ستالين . ذلك ان الطرق الدكتاتورية والتسلطية والدموية لا بد ان تولد منذ ان يغادر المرء الموقف العلمي والانساني معا (كعنصرين لا ينفصلان) ، وينطلق نحو اسطورة الايمان بحقيقة مطلقة تعلو على الانسان الذي يخلقها وتجعل نفسها فوق الناس الذين يعيشونها ويبدعونها في كل يوم .

ومن هنا رأينا المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي يبدأ بنقد هذا الاسلوب وينكره . ومن كبريات فضائل هذا المؤتمر انه وضع امام اعين العالم نقدا جريئا للمفهوم وللاساليب التي جعلت نظاما اشتراكيا كنظام ستالين محروما من كل تلك الثروة الفريدة التي تنتج عن مشاركة الملايين من المواطنين والمناضلين ، والتي ادت الى سفك دماء الملايين منهم منتهكا بذلك ديمقراطية الحزب والدولة ، بل الى استخدام النظرية « الدوغماتية » الايمانية المطلقة بمثابة عقيدة ايديولوجية تبرر ارتكاب الجرائم في حق الاشتراكية نفسها (١) .

ان تربية الفكر النقدي والعقل العلمي البعيد عن الاساطير ايا كان نوعها ، المؤمن بدور كل انسان في بناء مجتمعه ، مهمة كبرى من مهمات التربية في بلادنا العربية ، جديره بأن تبعد عن هذه البلاد كثيرا من الشرور ، ونضعها على الطريق الصحيح .

« من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت » .

ان الحقيقة ، ولا سيما في عصرنا ، متغيره متطورة ، تحيا عن طريق التغير والتطور . وهي ليست « كالجوزة القابعة في قشرتها » ، على حد تعبير « وليم جيمس » . وعصرنا عصر « التفجر » السريع في كل شيء ، وهو يستلزم قبل اي شيء اخر تربيه من اجل التغير ، من اجل التجديد ، من اجل الحركة . وهذه التربية على التجديد تنال العلوم والفنون كما تنال السياسة والايديولوجيات .

(٣) ومحاربة الروح الاسطورية وتكوين العقل العلمي الذي يزاوج بين الفكر والواقع ، تعني بلغة اخرى هدفا هاما اخر ، هو **تكوين العقل المستقل الحر .**

فالتربيه تضل طريقها وتناقض جوهرها وطبيعتها اذا لم تصل بالكائن الى تكون شخصيته هو لا شخصية غيره . وهدف التربية — كما يقول كثيرون — « ان يكون الانسان من هو » ، اي ان نستخرج منه — ضمن حدود طبيعته الاصليه — اقصى ما يمكن ان يصل اليه . والمربي الناجح ليس المربي الذي يحلق الطفل على صورته هو ، بل هو الذي يكون الطفل من خلال اتجاهات هذا الطفل الذاتيه ومقومات وجوده الاصيل ونداءات مصيره وموهبته .

وليس هدفنا ههنا ان نتحدث عن اهمية تكوين العقل المستقل في حد ذاته ، بل هدفنا ان نبين صدى ذلك في معركتنا الراهنة ومستقبلنا الذي نرجوه .

ان تربية العقل المستقل تعني ان يستطيع الكائن الذي نقوم بتربيته أن يكون سيد افكاره وخالق نظرته الى الكون والاشياء ، وان تأخذ بيده الى المرحلة التي لا يحتاج بعدها الا الى جهده الشخصي وعمله الذاتي . انها تعني ان نحول بينه وبين تعويده على الاطعمة الجاهزة ، على الافكار « المعلبة » المحفوظة ، وان نبعده عن الاتباع والانقياد ليكون مبدعا رائدا . انه يعني ان نحترم كيانه الذاتي وان نرفض اغتيال فكره وروحه عن طريق صب ما نشاء فيهما وعن طريق ملئهما بما يحلو لنا من نظرات واهواء . انها تعني ان نجعل من كل مواطن فردا نحترم فيه انسانيته ونحترم في انسانيته فكره الذاتي ، فكره الذي يبني نفسه بجهده الذاتي وينمي وجوده بقواه الذاتية التي اغنيناها واطلقنا شرارتها .

ومعنى ذلك ان المجتمع المنشود ، المجتمع الحي المرجو ، لا بد ان يتكون من حوار العقول المستقلة التي تجد لغة التفاهم المشترك فيما بينها عن طريق نضجها الذاتي وهويتها الذاتية ، والتي تصل الى تحديد اهدافها

---

(١) جارودي : اشتراكية القرن العشرين . الاصل الفرنسي ، ص ١٨

المشتركة عن طريق تفاعل منتج بين كيانات نفسية وفكرية تعرف أن تلتقي وان تجد ارضا مشتركة لانها عرفت ان تكون كيانات نفسية مستقلة في الاصل تملك ما في الاستقلال من قدرة على العطاء والاتصال والحوار . **فبدون النظره المستقله لا تكون النظرة المشتركة** ، او لا تكون مثل هذه النظرة خصيبا حافلة بالعطاء والقدره على النمو . وبدون العقول التي وعت ذاتها وكونت نظرتها الشخصية الى الكون والوجود لا يقوم لقاء حقيقي ، لان مثل هذا اللقاء لن يكون تفاعلا وتناجا ، بل سيكون التهاما واغتيالا وافقارا . ان الذات التي استطاعت ان تتفتح وان تكون من هي ، هي الذات التي تستطيع ان تفهم ذوات الاخرين وتتفاعل معهم وتجد واياهم طريق الانسان المشترك واهداف المجتمع المشتركة . اما الذات التي حرمت من الفطره المستقلة ، وعودت الاتباع والخضوع ، فهي عاجزة لا محاله عن ان تقدم للهدف المشترك شيئا ينضاف اليه ويغنيه ، اي انها عاجزه عن ان تعمل بالتالي للهدف المشترك .

ان **الايمان بالهدف** شرط اساسي في نجاح أي معركة ، اجتماعيه كانت او سياسية او عسكرية . والذين يتحدثون عن الرأي العام وتكوينه ووسائل تعبئتهيشيرون اول ما يشيرون الى الايمان بالهدف كوسيلة اساسية من وسائل اعداد الروح المعنوية . غير ان من الواجب ان ندرك ان هذا الايمان بالهدف ينبغي ان يكون ايمانا بالمعنى الحق لهذه الكلمة . وهو لا يكون كذلك اذا لم نحاول ان يكون لدى الافراد **ايمانا منبثقا من اقتناعهم الذاتي ومن ادراكهم وفهمهم الشخصي للامور** . اما الايمان ـ الاتباعي ـ الايمان المحقون عن طريق انتهاك حرمة عقول الاخرين واغتيالهم وتقديم الافكار المبيتة المفروضة عليها ـ فهو ايمان لا يرقى الى ان يعبىء الافراد تعبئة تجعل منهم جنودا يستميتون في سبيل الهدف .

صحيح ان التوجيه امر لازب ، وان الدعاوة عمل ضروري ، لان الناس ليسوا سواسية في حظوظهم من الفهم والادراك . ولكن لا بد من القول ان التوجيه شيء اخر غير الارهاب الفكري ، وان الدعاوة الحقة توضيح وشرح وبيان وليست اغتيالا للاراء بأي اسلوب من الاساليب . لقد يسر انتشار الوسائل التي تدعى شعبية وديمقراطية (من صحافة واذاعة وسينما وغيرها) . طرائق توجيه الناس وتفتيح اعينهم على الحقائق . ولكن ثمة خطرا يداخل هذه الوسائل الديمقراطية ويهددها ان تنقلب ضد الديمقراطية ، وذلك حين تتخذ اساليب لاقتناص العقول والنفوس عن طريق الحرف المثير والعنوان الاحمر الخلاب والصوت المبجوح والصورة الخادعة الاخاذة . وان من اهم واجبات التربية تحرير المواطن من ارهاب الالوان الصارخة والاصوات المسعورة وكل ما وضع من اجل الايقاع به في الفخ الذي نريد ، واصطياده للجعبة التي اعددناها .

ان التربية اذ تعود الافراد على احترام عقول الاخرين وعلى احترام استقلال الاخرين تخلص البشرية وتخلص البلدان المتخلفة خاصة من هذه المحنة الكبرى ، محنة اتخاذ النفوس والعقول اقطاعيات لاشخاص او لجماعات او لاتجاهات ، تباع وتشرى في سوق الدعاية كما يباع العبيد في سوق النخاسة .

ان الايمان الراسخ هو الايمان الصادر عن صاحبه حقا ، والتربيه لا تعدو ان تيسر له بزوغ هذا الايمان ، والتوجيه السليم لا يعدو ان يجعله قادرا على هذا الايمان المؤمن بذاته المنبثق من جهده الخاص . انه الايمان الذي يعرف اين السبيل ويتبين المصير ويدرك الخطوات وتتضح عنده نهايتها وغايتها . **فلا ايمان بهدف لا يتبينه المرء ، ولا ايمان بهدف لم تحدد خطواته ، ولا ايمان بهدف لم تستبن امكانيات تحقيق خطواته .**

ان المتحدثين عن « القياده » في شتى صورها ومجالاتها (في مصنع او مدرسة او مجتمع او حرب) يبينون اكثر ما يبينون ان القيادة الناجحة هي التي تعرف ان تبين الاهداف وان ترسم طريق الوصول اليها وان تدل على الخطوات المختلفة التي قطعت في سبيلها . كما يبينون ان القيادة السليمة هي التي تحرص على رفع الروح المعنوية لدى الافراد ، عن طريق وسائل عديدة ، على راسها اشتراكهم في رسم الهدف وتبنيهم له ، وشعور كل واحد منهم ان له دورا في العمل المطلوب وان دوره اساسي ، وقيام حوار حقيقي يجعل المجموعة تشعر انها تبني اهدافها بنفسها . اما القيادة الفاشلة فهي التي توصف بالتفرد في اتخاذ القرارات والاراء ، والتي تكتفي بأن تضع الخطط وتطلب الى المجموعة انفاذها دون مناقشة بل دون فهم .

ان قوام التربية السديدة احترام الانسان كانسان، واحترام قيمه وشخصه وافكاره ، والابتعاد عن روح القطيع ، عن روح السادة والمسودين . انها تنطلق من منطلق اساسي : وهو **ان لا شيء يعلو على الانسان** . فالنظم من اجله والايديولوجيات في سبيل سعادته ، والتغيير الاقتصادي والاجتماعي من اجل تحريره واغنائه. واستعباد الانسان ـ استعباده لاي شيء ـ حتى للمثل العليا ـ مرفوض من اساسه . فالمثل العليا التي تفرض فرضا ليست مثلا عليا . والمثل العليا هي التي تخرج من الذات وتمتلىء بها الذات وتغتني وتعطي . وكثيرا ما ننسى ونحن نصنع العقائد المؤدية الى سعادة الانسان ونرسم التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي تحرر الانسان ، ان من غير الجائز ان نغفل عبر الطريق ان الوسيلة لا يجوز ان تنقلب الى غاية ، وان السبيل التي اردناها سعادة للانسان وتحريرا قد تغدو شقاء واضطهادا. كثيرا ما ننسى مثلا ان التنمية الاقتصادية ليست الا جانبا من الجوانب التي تطرح في البلدان المتخلفة خاصة من اجل تقدمها ، وانها بالتالي لا تملأ سائر الجوانب، وان

الى جوارها اهدافا اخرى ينبغي أن تظل لاصقة بهـا مندمجة معها ، نعني التنمية الاجتماعية والتنمية الثقافية وكل ما من شأنه خلق الانسان بالمعنى الكامل الشامل ، لا الانسان الاقتصادي Homo économicus فحسب . ومرد ذلك كله ان ايماننا بالانسان وباحترامه يقف في معظم الاحيان على شفا هاوية ، وانه في كثير من الاحيان معرض للسقوط والانهيار ، حتى بايدي اولئك الذين يظنون انهم يعملون من اجل الانسان ، بل بايديهم خاصة اكثر من سواهم . ان بداية الوهن في العمل لحضارة الانسان ، ان ينصب اي انسان نفسه حكما وحاكما واحدا ووحيدا على الانسان . انها البدء بانكار معنى الحضارة كحوار بين عقول مستقلة وكلقاء بين نفوس تملك سيادتها ونظرتها وحريتها .

قد يقول قائل ان مثل هذه النظرة تنطلق من منزع يغلب الاغراض الفردية على الاغراض الاجتماعية في التربية . ولن ندخل ههنا في مناقشة هذه المسألة الابدية، **مسألة الاتجاه الفردي والاتجاه الاجتماعي للتربية** . وجل ما نريد ان نقوله ان الاتجاهين في نظرنا متكاملان وينبغي ان يتكاملا ويتحدا ، والا لم تكن التربية تربية حقة . فالاندماج بالمجتمع والاتحاد مع اهدافه ومطالبه شرط اساسي من شروط نمو الانسان وتفتح فرديته ووجوده الشخصي المستقل . وعن طريق تراث المجتمع وقيم المجتمع واهداف المجتمع يزداد الفرد ارتفاعا وارتقاء في مراتب الانسانية . غير ان التربية التي تقف عند حدود دمج الفرد بمجتمعه وخضوعه له وانقياده لاتجاهاته، تقصر عن مداها وتضر بالفرد والمجتمع معا . اذ لا بد ان يندمج الفرد بالمجتمع وان يجاوزه في آن واحد ، لا بد ان تكون التربية الاجتماعية في النهاية وسيلة لربطه بالمجتمع ولتحريره منه في الوقت نفسه ، ولا بد ان تؤدي الى ان تكون لديه نظرته الشخصية وحكمه المستقل وافكاره النقدية القادرة على تطوير المجتمع نفسه من جديد . وبدون ذلك لا نرجو للفرد تطورا كما لا نرجو للمجتمع تطورا . ان المجتمع السليم يخلق الاداة التي تعمل على تجاوزه من اجل تطويره وتنميته . والقول الفصل في هذا كله ـ بوجيز العبارة ـ **ان التربية لا تكون تربية اذا لم تكن اجتماعية واذا لم يكن الاندماج بالمجتمع اداتها ، كما ان التربية لا تكون تربية اذا كانت اجتماعية لا غير واذا لم تجاوز المجتمع .**

من خلال هذه النظرة نتخلص من **اخطاء النظريات المجموعية** (الفاشية او النازية او الستالينية او سواها) التي تؤله المجتمع وتعتبر أن الدولة قبل الفرد وانها كيان شامل له حياته وروحه التي تسيطر على الافراد ، وانها غاية في ذاتها تحدد نشاط الفرد وعلاقاته وما عليه الا ان يبقى في خدمتها وطوع ارادتها .

ومن خلال هذه النظرة نتخلص ايضا من **اخطاء النظرة الفردية الخالصة** التي تفرط في حرية الفرد على حساب المجموع . **ولا بد في هذا كله ـ في نظرنا ـ من الجمع الوثيق بين عمل الفرد وعمل المجموع ، بين السباق والوحدة ، بين الحرية والاهداف المشتركة العامة.** وتلك هي المهمة الشاقة ، ولكنها مهمة جديرة بأن تقتحم، لان فيها المصير الحقيقي للانسان . ان الاخذ بنظرة مجموعية تخضع كل شيء للمجموع وللدولة امر سهل لا يحتاج الى عناء وجهد ، وان يكن منتهاه قتل المجتمع والفرد في نهاية الامر . وان الاخذ بنظرة فردية مطلقة تقدس الفرد لذاته ولا تدرك ارتباطه العميق بالمجتمع وقيمه ولا تعي ان قيم المجتمع جزء من قيم الفرد ، امر يسير ايضا في ظاهره ، ولكنه يقود الى مجتمع الفوضى ان لم نقل الى مجتمع الغابة . والمهمة الجديرة بالجهد والعرق هي الموقف الاصيل الذي يحقق هذا الارتباط العضوي الطبيعي بين الفرد والمجتمع . ومثل هذه المهمة قمينة بأن تنصب عليها جهود الانسانية ، وان يتجه مصير الانسان شطرها .

(٤) وكنتيجة منطقية للمبدأ السابق لا بد ان نجعل من اهداف التربية **تكوين الروح الجماعية وخلق روح العمل المشترك** . لا بد ان نربي الفرد على التعاون مع اقرانه وعلى تنظيم المشاركة معهم . ومثل هذا المطلب يفرض جهدا تربويا نقوم به منذ الصغر في المدرسة وخارجها . ولا يتسع المجال للحديث عن الوسائل العديدة التي تؤدي الى تكوين روح العمل الجماعي . وحسبنا ان نقول موجزين ان الامر يحتاج الى تغيير جذري في الطرائق المتبعة في مدارسنا . فكل ما فيها يدور نحو تنمية « الانا » بالمعنى الضيق للكلمة أي بمعنى الانانية والدوران حول الذات . ومهمتنا ان نقلب المدرسة من بيئة تعنى بتربية « الانا » بهذا المعنى الضيق الى بيئة تعنى بتربية « النحن » . ووسائل ذلك عديدة منها تنظيم العمل التعاوني واقامة تعاونيات صغيرة ضمن المدرسة. ومنها تدريب الناشئة على الحكم الذاتي ، على ان يحكموا انفسهم بانفسهم ويجعلوا من المدارس جمهوريات ديمقراطية صغيرة . ومنها العناية بالنوادي وبالانتاج المشترك كالمجلات المدرسية او المعارض او غيرها . ومنها تبديل وسائل الثواب والعقاب بحيث تغدو جماعية لا فردية ، وبحيث نقارن الطالب بذاته قبل ان نقرنه بلداته.

وغاية هذا كله ان نعد مواطنين قادرين على العمل المشترك وعلى تحقيق اهداف مشتركة . وليس جديدا ان نقول ان آفة الآفات في مجتمعنا العربي وفي كثير من المجتمعات العجز عن تصريف العمل المشترك وطغيان روح الفردية والانانية وعدم التمرس بانجاز المشروعات الجماعية التي يسهم فيها كل فرد بمقدار . ومن هنا يسود انغلاق الافراد بعضهم على بعض وينقطع الاتصال الحي بين قوى افراد المجتمع وطاقاتهم ونفوسهم . ومن هنا ايضا ضروب من الصراع تؤدي في النهاية الى تحطيم المجتمع ، وابعاده عن الاستقرار وانعدام كيانه المتماسك.

وهل نعلو اذا قلنا بأننا ما نزال نعيش – في كثير من ميادين حياتنا – عيشة الشعراء من اجدادنا الذين كانوا يتخذون الفخر فضيلة والتغني بالنفس والتامل المراوي لها غاية الغايات ؟ افلا نشهد في تضاعيف حياتنا السياسيه والاجتماعية روح عمرو بن كلثوم يردد :

الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

افلا ترن في عقولنا اصداء قول الشاعر :

وانا اناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين او القبر

افلا نلمس تلك الروح التي جعلت شاعرنا العربي يقاتل اخاه اذا لم يجد من يقاتله :

واحيانا على بكر أخينا اذا ما لم نجد الا اخانا

اولسنا بعيدين الى حد كبير عن معاني «المواطنية» التي تقضي بخضوع الفرد لمصلحه المجموع واتباعه للنظام الذي تقره الجماعه ؟ أفلا نجد حتى الان من يعتبر الخضوع للنظام من شيم الضعفاء ، ومخالفه المبادىء العامة شيمة الاقوياء . أفلا نضج في مسامعنا اقوال المتنبي .

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

اننا احوج ما نكون الى التربية على روح العمل المشترك والبناء المشترك والتعاون ، واتقان الخطة المشتركة، وحسن انجاز المهمات التي تتطلب مشاركة جماعية . ان « الانا » البغيض الذي حدثنا عنه « مونتيني Montaigne » ينبغي ان يصبح بغيضا حقا لدينا . فالانانية تعني الموت، والغيرية هي العطاء وهي الحياة .

(٥) ومن الاهداف التي ينبغي ان تهدينا في معركتنا ، **العمل على تربية روح النضال بشتى صورها ومعانيها** . فالمجتمع العربي مجتمع يستيقظ من غفوة طويلة نسي فيها بلاءه وتمرسه بالشدائد ، وكاد يركن الى حياة الدعة . والمجتمع العربي مطوق بالاعداء في الداخل والخارج ، وعلى رأسهم العدو الصهيوني . ولا بد للتربية ان تخلق لدى هذا المجتمع روح المقاومة والعراك والتحدي . لا بد ان يدرك ان تحقيق الاماني لا يأتي سهوا رهوا ، وان بناء مجتمع متقدم لا يكون بدون النصب والشدائد . لا بد ان يعي أن تاريخ الانسانية هو في النهاية تاريخ تغلب الانسان على مصاعب الطبيعة، تاريخ تحدي الطبيعة وجعلها طيعة امام ارادة الانسان وعزمه.

ان النضال بشتى صوره – في مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة والعلم والفن الحديث ينبغي ان يكون ضالة هذا الجيل الذي خلق في هواء المعركة وسيظل يحيا طويلا ضمن اجوائها . والمجتمع المتخلف لا ينمو الا بنضال ابنائه في سبيل القضاء على تخلفه في شتى المجالات .

اما وسائل تكوين روح النضال هذه فعديدة ، لا مجال للحديث عنها . وحسبنا ان نذكر جانبا منها ، هو الذي يتصل بمعركتنا الكبرى ضد العدو ، نعني **التدرب المستمر المتصل على القتال لدى فتياتنا وفتياننا** ، واعداد جيل يفهم الحرب ويدرك ابعادها ولا يرى فيها شبحا او سحرا لا يفقه منه شيئا ويلوذ منه بالفرار . وواضح ان هذا الهدف متصل بالاهداف السابقة . فنحن لا نستطيع ان ننجح في اعداد جيل متمرس بالنضال مقبل عليه ، الا اذا حلفنا الايمان بالهدف ، ولا نستطيع ان نخلق الايمان بالهدف الا اذا دوبا الانسان المستقل واحترمنا انسانيته واقمنا حوارا معه حول الاهداف المشتركه . ولا نصل الى ذلك كله ما لم نتقن في الوقت نفسه اساليب العمل الجماعي المشترك ونعمل جميعا بروح الرجل الواحد ، وننسى رواسب الغرور والادعاء والفخار الاجوف ، ونجعل من نضالنا نضالا من اجل هدف واضح المعالم بين الخطة علمي التخطيط ، وهكذا تشتبك الاهداف وتتداخل ويخدم احدها الاخر . ومن غير الجائز ان نأخذها فرادى ، فنفقدها معناها وجدواها .

(٦) وبعد ، أي اهداف نذكر واي اهداف نغفل ؟ لقد رغبنا منذ البدايه في الاقتصار على الاهداف ذات الصلة الوثيقة بالمعركة . غير ان هذه الاهداف نفسها عديدة شتيتة تزدحم في صدر المرء فلا يدري ايها يختار .

ولكن اذا كان لا بد ان نذكر شيئا بين اشياء كثيرة متبقية فلنقل كلمة عابرة عن **مكافحة الامية وتعليم الكبار**. ولقد كتب الشيء الكثير عن هذا الموضوع ولكنه في نظرنا ما يزال بكرا ، كما ان ايماننا باهميته ما يزال دون المستوى اللازم .

ان مكافحة الامية الواسعة الانتشار في بلادنا شرط لازم لعملية التنمية ، وعلى رأسها التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ولا يتسع المجال للحديث عن الدراسات العديدة التي بينت بالرقم والاحصاء الفرق الهائل بين نتاج العامل الامي ونتاج العامل المتعلم في اي مجال من المجالات . ولا حاجة الى التذكر بما كشفت عنه الدراسات في جميع البلدان السائرة في طريق النمو حيث بينت ان العقبة الاساسية في طريق التطوير ، تطوير وسائل الزراعة مثلا او سواها ، هو الانسان ، الانسان الجاهل الذي يتأبى على التغيير والتجديد والتكيف مع المواقف الجديدة ، والذي يؤثر دوما عاداته البالية القديمة . وحسبنا ان نقول **ان التعليم يخلق اولا وقبل كل شيء المرونة والقدرة على التجديد والقابلية للتكيف ، وهذه كلها شروط اساسية في سبيل نجاح التقدم والتحويل الاقتصادي والاجتماعي** . أولم يبين مؤرخو الاقتصاد ان زوال الامية في الدانمارك في أواخر القرن التاسع عشر منذ طور مبكر اكثر من سواها من البلدان الاوروبية (وذلك بفضل انتشار الجامعات الشعبية) هو الذي جعل الفلاح الدانماركي – من دون سواه – يتغلب على أزمة القمح التي عمت اوروبا بعد اكتشاف اميركا ، وهو الذي جعله يهجر زراعة القمح الى عمل اخر هو تربية الحيوانات

– التتمة على الصفحة ٩٩ –

التربية وطريقنا الجديد الى النصر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٤ ـ

وصناعة الالبان التي اصبحت اكبر مصدر للثروة في الدانمارك ؟ لقد تم للفلاح الدانماركي ذلك بفضل القدرة على التغيير والتجديد التي تخلقها الثقافة وبفضل القدرة على الانتقال السريع من شكل من اشكال الانتاج الى سواه بسبب المرونة التي يولدها التعليم .

الم يذكر كذلك مؤرخو الاقتصاد ان التقدم الكبير الذي تم في اليابان من دون سائر بلدان اسيا منذ نهاية القرن التاسع عشر يرجع الى القضاء على الامية قضاء شبه كامل ؟

وفوق هذا وقبل هذا ، الم يبين بعض المربين ان الصله وثيقة بين تعليم الكبار وتعليم الصغار ، وان الصغار الذين يتلقون تعليما ابتدائيا او قريبا منه كثيرا ما يعودون الى الامية من جديد اذا كانت البيئة التي يحيون فيها جاهلة . وبذلك يقع هدر كبير في الجهود التي نقوم بها لتعليم الصغار حين يعود قسم كبير منهم اميين بعد ان انفقت الدولة على تعليمهم ما انفقت .

وهل من جديد القول ان نذكر ان الامية انواع ، وان الجهل بالقراءة والكتابة ليس اخطرها وان يكن من اهمها . فهنالك الامية الصحية والامية المهنية والامية الاجتماعية ، وكلها اعباء ثقيلة تجعل قدرة المجتمع على التقدم وعلى النضال وعلى التغيير محدودة ضعيفة .

غير انه لا بد من كلمة تقال في هذا الصدد : لئن كانت مكافحة الامية والثقافة الشعبية امورا ضرورية ، فهي لا تؤتي ثمراتها وقد تنقلب الى جهود ضائعة اذا لم نضع خطة كاملة لذلك ، نتميز عن طريقها الفئة الاجدر بأن نكافح اميتها،ونضع منهاجا طويل المدى واسع النطاق، ونصطفي الاساليب الصالحة لتعليم الكبار . وان لم نفعل فشلت جهودنا وذهب الكثير منها ادراج الرياح .

ان تنمية العنصر البشري ، تنمية الكثرة الكاثرة من ابناء بلادنا ، والجماهير الغفيرة المحرومة من النور والتي تكون حوالي ثلاثة ارباع سكان هذه البلاد ، مطلب اساسي بدونه لا تتحقق اي تنمية حقة ، وتظل عجلة البناء والتصنيع والتقدم والتقنية عجلة معطلة الى حد بعيد . وخطأ ان نزعم ان تربية الكبار هذه ينبغي ان نبدأ بها بعد الانتهاء من تعليم الصغار ، اي بعد اتاحة فرصة التعليم الالزامي لجميع من هم في سن التعليم ، وبالتالي بعد الانتهاء من القضاء على المنبع الاصلي للامية ، نعني المتخلفين عن التعليم من الصغار . فالفرضان في الواقع ، نعني تعليم الصغار وتعليم الكبار ، ينبغي ان يسيرا جنبا الى جنب ، وكل منهما يخدم الاخر كما بينا ، كما ان اغراض كل منهما مباينة لاغراض الاخر .

(٧) ومن بدهيات الامور في النهاية ان نتحدث عن **اهمية التخطيط من اجل هذا كله** . فالتخطيط اليوم هو الترجمة العملية للعمل المبني على العلم . واحوج ما نحتاج اليه **ان نتقن العمل البعيد المدى** وان نجيد التخطيط لغدنا ونترك العمل كفافا يوما بيوم . ان معرفة المنطلق والمسير والمصير سبيلنا الاساسية الى سائر اهدافنا . وان الارتجال والاخذ باسلوب النفس القصير داء الادواء في نهجنا .

ولا بد ان نجاري في هذا الميدان روح العصر الحديث التي تفرض ان نعد لكل امر عدته قبل حين،وان نرسم اهدافنا ونرسم وسائل الوصول اليها قبل امد . ولا بد ان نقول هذه الحقيقة المرة وهي ان التخطيط لخلق دولة اسرائيل منذ اكثر من نصف قرن (منذ ايام هرتزل وبيانه الشهير عام ١٨٩٦) هو الذي يسر في النهاية خلق هذه الدولة الغاصبة .

والتخطيط الذي نرجوه لا يقتصر في الواقع على ميدان دون اخر ، بل قوامه بالذات ان يكون تخطيطا مترابطا متكاملا ، نعني اقتصاديا واجتماعيا وتربويا . فالخطة الاقتصادية ينبغي ان تكون متكاملة مع الخطة التربوية والاجتماعية ، والعكس بالعكس . والتخطيط لا يبلغ مداه الا اذا كان شاملا . وما دمنا في ميدان التربية لا بد من القول ان الخطة التربوية ينبغي ان تقوم معظم اهدافها على اساس تلبية حاجات السوق الاقتصادية والاجتماعية من الخبراء والفنيين والاختصاصيين في شتى المجالات ، وعلى اساس خدمة اغراض التنمية عن طريق اعداد الكفاءات الضرورية لها . وقد سبق ان اشرنا الى ذلك .

ان التخطيط هو المساعد الحقيقي لكل هدف ولكل ايديولوجية . انه هو الذي ينقل الهدف من مرحلة الشعار الى مرحلة التطبيق ، وهو الذي يجنب الايديولوجية مخاطر اللفظية والمزاودة والتهور او مخاطر التصلب والتجمد على حد سواء .

انه هو الذي يرسم خارطة الواقع والممكن والمستحيل ويضع الاساليب الكفيلة بتحقيق ما يمكن تحقيقه . انه هو الجدير بتحقيق امنية شوقي :

لا تتركوا مستحيلا في استحالته
حتى يبين لكم عن وجه امكان

والتخطيط التربوي خاصة ـ ونقول هذا مرة اخرى ـ خير عون لسواه ، بوصفه يخطط من اجل اعداد اثمن عامل في اي تقدم واي هدف ، نعني العامل الانساني .

ولكن هذا التخطيط بدوره ليس مجرد كلمة تقال او لفظ مستحدث يجري على الالسن . انه خبرة وفن ودراية . انه بدوره في حاجة الى تخطيط . وكثيرا ما نكتفي من التخطيط بالاسم ، وكثيرا ما ينقلب التخطيط الى نقيض الغاية المرجوة منه ، عندما يكون تخطيطا جاهلا بالوسائل الفنية الحديثة ، غير مدرك لمبادىء العمل في هذا المجال ، وللتواصل بين التخطيط الاقتصادي والاجتماعي والتربوي بوجه خاص .

فقد يؤدي طغيان النظرة الاقتصادية الخالصة في التخطيط الى مخاطر كبيرة ، على رأسها ان ننسى ـ كما

سبق ان قلنا ـ ان الاقتصاد مجعول من اجل الانسان وليس الانسان من اجل الاقتصاد ، وان الحرص على التنمية الاقتصادية لا يجوز ان يؤدي الى استعباد الانسان والى عبودية جديدة باسم الاقتصاد .

والعكس صحيح . فالخطة التربوية التي لا تضع على رأس اهدافها تلبية حاجات الاقتصاد تؤدي الى شلل الثقافة وعجزها وتكوين مثقفين عاطلين و « افساد » طبيعة الانسان وتشويهها حين نفصله عن وظيفته الانسانية الاصيلة ، نعني كونه عاملا وكونه انسانا يشغل عملا مفيدا في مجتمعه .

وفوق هذا وذاك لا يجوز ان ننسى ان هنالك اهدافا اجتماعية للتخطيط ، بدونها لا يفلح التخطيط الاقتصادي التربوي ، فهنالك مفهوم العدالة وتحقيقها ، وهنالك الطبقات الاجتماعية وضروره القضاء عليها ، وهنالك الرفاهية والصحة والسعادة الخ .. ولو صح ان نهمل الاهداف الاجتماعية لحق لنا ان نقول ان الوباء او الامراض قد تكون مفيدة من الوجهة الاقتصادية لانها تخلصنا من عدد من الافواه الجائعة . ان التقدم ليس مسألة اقتصادية وفنية فحسب ، بل هو مسألة تطرح قضية الحضارة كلها ، قضية الانسان واحترامه وتوفير العدالة له وضمان رزقه وصحته وحمايته من الفئات الاجتماعية التي تهدد نموه بل وجوده احيانا .

وقد بين باحث هو « آدم كورل Adam Curle » ـ نتيجة لتجربته كخبير اجتماعي في بعض بلدان افريقيا وآسيا ولا سيما باكستان ـ **اهمية العنصر الاجتماعي** في تنمية هذه البلدان وضروره تغيير البنية الاجتماعية كلها ، تلك البنية التي تعرقل التطور . واشار خاصة الى الدور الذي تلعبه سيطره مباديء المساواة والعدالة الاجتماعية في التنمية الاقتصادية لتلك البلدان . كما وقف عند الصلة الوثيقة القائمة بين البنية الاجتماعية السياسية وبين الانتاج . وانتهى من **وراء** ذلك كله الى اهمية تربية الكبار واهمية استخدام وسائل « تنمية المجتمع » واهمية الديمقراطية في رفع مستوى تلك البلدان المتخلفة وفي تحقيق النمو الاقتصادي .

وهكذا فالمسألة « مسألة التخطيط » ليست اقتصادية ولا هي تربوية خالصة ولا هي اجتماعية ، وانما هي اقتصادية وتربوية واجتماعية معا .

وما دمنا بصدد التخطيط في البلدان العربية خاصة، هذه البلدان التي تعتمد على الزراعة اعتمادا اساسيا والتي لا بد ان تنطلق من التنمية الزراعية من اجل الانطلاق نحو التصنيع ، لا بد ان نولي اهتماما خاصا للتخطيط في ميدان الزراعة والاصلاح الزراعي . فالثروة التي تنجم عن رفع مستوى الزراعة ثروة لا بد منها للقفز نحو التصنيع ونحو المجتمع المصنع . وهذا ما حدث في البلدان المتقدمة نفسها ، اذ كان نمو الثروة الزراعية منطلقا اساسيا ساعد على انتهاج طريق التصنيع .

والمجال ليس مجال الحديث عن معالم الخطة الزراعية المنشودة ، وحسبنا ان نذكر من قبيل المثال ما كان لتخطيط الزراعة في اسرائيل من دور كبير في التغلب على مشكلاتها الاقتصادية ، وما اولته من عناية خاصة لمشكلة « التخطيط الزراعي المحلي » تبعا للمناطق المختلفة.

خاتمة :

ولا شك ان خاتمة المطاف لهذه الاهداف كلها ان نقوى **على تكوين الروح العربية الجديرة بخلق المجتمع العربي الموحد** . فالهدف العربي هدف شامل من اهداف التربيه يلم سائر الاهداف ويوحد بينها ويبرر وجودها . ولا بد من الانطلاق دوما وابدا من هذه الحقيقة التي يؤكدها الواقع الحي ويجأر بها : وهي ان المصير العربي واحد وان العمل له لا بد ان يكون واحدا . قد تختلف سبل الوصول الى هذا المصير العربي المشترك ، وقد تكون هنالك صيغ عديدة لتكوين المجتمع العربي الموحد وقد تتباين الانظمة السياسيه التي من شأنها تحقيق مثل هذه الوحدة . والذي يحكم على هذه الصيغة وعلى سبيل الوصول وطريق المصير الواحد هو الواقع العربي بمقوماته وامكانياته والتطور الذي يمكن ان يحققه والخطوات التي يتقبلها كيانه . ولكن اصل الاصول يظل على اية حال ان سلاحنا الاكبر في معركتنا من اجل البناء الداخلي ومن اجل التغلب على العدو المشترك يظل دوما وابدا **تكوين الجيل العربي انطلاقا من روح تربوية موحدة هي الجديرة بأن تطلق الروح العربية الموحدة والكيان العربي الموحد .**

فعلى الرغم من ان مقومات الوحدة واصولها التاريخية والراهنة قائمة في البلاد العربية وان الشعور المشترك بالوجود المشترك هو شعور الجماهير الغفيرة في البلاد العربية يظل من الصحيح ان هذه المقومات وهذا الشعور لا تبني من تلقاء ذاتها الكيان العربي المنشود ولا تؤدي بضرب من الجبرية الى بلوغ هذا المستقر . وهنالك دون شك فرق اساسي دوما بين الامة كوجود عفوي يملك بذور الوحدة ومقوماتها وبين الحركة القومية التي تعبيء قوى الوحدة الكامنة في الامة وتغنيها وتهب لها مضمونها كي تنقلب الى كيان واقعي سياسي . وليس المجال مجال الحديث عن وسائل تكوين الروح العربية الموحدة لدى جيلنا العربي ، وهو موضوع طالما جاسه الرواد وطرقته الاقلام . غير ان الذي يعنينا ان نقف عنده ونؤكد عليه ـ ما دمنا في ميدان التربية ـ هو ان الوسائل المجدية للوصول الى هذا الهدف العربي المنشود لا بد ان تنبع من الاهداف التربوية التي اشرنا اليها عبر هذه الكلمة . فالعمل العربي القادر حقا على خلق روح عربية موحدة راسخة لا بد ان ينطلق من الاساس العلمي ، ولا بد ان يكون قوامه الايمان بالعقل ، وبالعقل المستقل ، وبروح الحوار ، وبالتخطيط وبسائر الاهداف التي اشرنا اليها . **لا بد في عملنا لبناء الروح العربية الموحدة ان نغادر**

الاسلوب السحري العاطفي في العمل ، وأن ننأى عن جعل هذا العمل تغنيا بالماضي والاجداد او ايمانا بالقدره الخارقه للافراد والافراد الفلائل على تكوين المجتمع العربي المنشود . لا بد ان ندرك ان العمل العربي هو عمل كل فرد من أبناء الامه العربيه وانه عمل يومي ومحسوس له قوامه وله عناصره وله خطته وما هو مجرد عبير تتنسمه في الهواء او قدرة سحرية نعتقد انها تنطلق انطلاق المارد الجبار . لا بد ان نحارب اسطورة البطل القادر وحده على ان يصنع كل شيء والمتحمل وحده اعباء المعركة ، كما نغادر اسطوره الايديولوجيه الفارغة المتجمده التي تكتفي من العقيده بالشعار وتقيم انفصاما بين هذه العقيدة وبين الواقع ، وتحسب ان مجرد تقرير العقيده يعني تطبيقها ، وتنسى **الفرق الهائل بين رسم الايديولوجيه وبين رسم خطوات تنفيذها .**

ان الجيل العربي الجديد القادر على بناء المجتمع العربي الموحد ـ أيا كانت صيغة هذه الوحده ـ هو الجيل الذي يؤمن بالعلم لا بالمعجزات وبالعمل الدائب المخطط لا بالامنيات . هو الجيل التقدمي الذي يدرك ان التقدمية بشتى عناصرها العلميه والفكريه والتقنية هي اداة تكوين المجتمع العربي المنشود . هو الجيل الذي يدرك ان التراث العربي لا بد ان يرتبط ويتصل بتراث القرن العشرين . هو الجيل الذي يعي هذه الحقيقه : وهي ان الحضارة العربية في اوج نهضتها كانت اولا وقبل كل شيء حضارة تعنى بالعلوم وبالعقل التجريبي وانها هي التي اطلقت للعالم قبل « روجيه بيكون » و « فرنسيس بيكون » وغيرهما روح الاستقراء والتجربة العلمية والاستلقاء في احضان الطبيعة للتنقيب فيها ومعرفتها ومعرفة قوانينها واستخدامها . **وهذه الروح العلمية التجريبية التي اطلقتها الحضارة العربية ـ من دون حضارة اليونان وفارس وغيرهما ـ هي القمينة بأن تغذي الروح العربية من جديد** بعد طول غفوة ورقاد وبأن تصل المجتمع العربي بمجتمع التقنية والآلة والصناعة ، بمجتمع الابداع الذي يستخرج اكثر فاكثر طاقات الانسان ويسلطها على الكون ويتحدى بها الواقع .

ان الجيل الذي ينبغي ان ينبثق من قلب هذه النكسة المؤلمة ليصنع المستقبل المنشود هو جيل الادراك العلمي لمضمون التغيير الاجتماعي والسياسي واساليبه ، لا جيل الشعارات الخاوية او التصفيق المطمئن او الاتكالية الكسولة . هو جيل الثورة على الديماغوجية وعلى سياسة المزاودة وعلى روح القطيع . جيل احترام الانسان كانسان ، جيل الحوار والتفاعل بين الافكار والقيم . هو **الجيل المؤمن بالديمقراطية** كأساس لكل نهضة ، على ان يتحد فيها معنياها المرتبطان ارتباطا عضويا ، نعني معنى الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية .

وعندما تضع التربيه لنفسها هدفا تكوين مثل هذا الجيل فانها بذلك وحدها تستطيع ان تطمئن الى المستقبل لان عملها يعني بالذات انها اطلقت البذره المنتجه لمجتمع قادر على ان ينمي نفسه بنفسه ، بعد ان اطلقنا ماردة الابر مارد الفكر الحر التقدمي القادر دوما على مزيد من التفتح . انها بذلك تشعل شراره النمو القادره على الاستمرار ، وتغزل نسيج التنمية الذي يملك قدره التحرك الدائم والتراكم . فالمهم المهم ليس ان نخلق واحات من العمل التقدمي ومن مشروعات التنميه منثوره هنا وهناك وسط صحراء ترمعها شزرا **بل خلق الوقود المحرك للمجتمع كله** ، القادر على ان يجعل هذا المجتمع مالكا لمقومات الانطلاق المستمر والتقدم المتراكم . ولا يفعل مثل ذلك سوى الانسان ، سوى بناء العنصر الانساني الذي اطلقنا لديه روح التفتح والعقل المبدع واليد الصناع والخبره الفنيه الدقيه وروح الحوار والتفاعل وعقليه العمل الجماعي المشترك والتمرس بالنضال ومعالجه الواقع معالجه علميه .

وبوجيز العباره ان معركتنا هي قبل كل شيء معركة ضد التخلف بكل معانيه . ولئن كانت سمات التخلف معروفه اطال في وصفها الاقتصاديون وسواهم ، فان المهم امران : اولهما تبين سمات التخلف وطبيعتها واسبابها في بلادنا العربية ، وثانيهما معرفه وسائل التغلب على سمات التخلف هذه ، معرفه نقاط البدايه من اجل كسر حلقة التخلف ، معرفه الخطوات اللازمة وترتيبها ورسم الاولويات وادراك ما هو اولى بأن يقدم وما هو قابل للتأخير والتأجيل . واذا كنا نشير الى الامر الاول وهو معرفه اسباب التخلف في بلادنا لا في أي بلد فذلك لان رأس عملنا في سبيل مجتمعنا المنشود لا بد ان ينطلق من **الايمان بكيانه الذاتي المستقل وطريقنا الخاص الى التغيير الاجتماعي والاقتصادي** ، ذلك الطريق الذي لا بد ان ينبثق من بنية واقعنا ومن حرصنا على الانبعاث بقوانا الذاتية قبل كل شيء ، **وانكارنا لاي معركة سلاحها الاول لا يستمد من طاقات العرب انفسهم** ، وتنكرنا بالتالي لاي معنى من معاني التبعية أيا كان نوعها ولالقاء اعباء تقدمنا على سوانا . ان اللقاء بين التجارب العالمية والتعاون بينها من سمات العصر ما في ذلك ريب . ولكن اللقاء والتعاون لا يتخذان معناهما الحقيقي الا اذا قام بين دول لكل منها كيانها الذاتي المميز واستقلالها الكريم . والكيان القادر على ان نقتدي بتجربة الاخرين هو الذي يملك اولا مقومات الكيان واعصابه وشرايينه التي تستطيع ان تمتص اطعمة الاخرين ورفدهم . **والكيان ينبغي ان يكون شيئا كي يستطيع ان يتفاعل ويقتدي بتجربة سواه** . واذا كنا بعد ذلك نقف عند الامر الثاني وهو رسم الاساليب ووضع الخطط والخطوات الكفيلة بالتغلب على تخلفنا ، فذلك لان من بدهي القول ان نذكر كرة اخرى ان الفكر والعمل

ينبغي ان يتكاملا وان الخطة العلميـــة الصحيحة هـــي بالتعريف وصنع مجموعة من الاهداف ورسم السبـــل والتدابير اللازمة للوصول الى تلك الاهداف ...

***

هل يقول القاريء من جديد ان هذه الاهداف التربوية التي نجد فيها طريق خلاصنا اهداف تحتاج الـى نفس طويل ووقت مديد وجهد قد تنوء تحته الاكتاف ؟ ان هذا ما نريده وما نقصد اليه . انـنـا **نريد ان نؤكد مـرة اخرى الايمان بالعمل العميق وان يمد طويلا** ، وان نؤكد ضرورة البدء من البداية الصحيحة . وهذا هـو جوهر الانقلاب الجذري الذي ينبغي ان نحدثه فـي عقليتنا واسلوبنا ان المتعجل هو كالمنبت (لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى) . وان اجشع القوم اعجلهم . ولا بد ان نطلق طلاقا بائنا مبـدأ « كل شيء او لا شيء » . فهو المبدأ السحري بعينـه .. ان صاحب هذا المبدأ يريد ان يصل الى كل شيء غـدا وبين عشية وضحاها ، كالطفل الذي لا يصبر علـى شراء دميته المحببة . وهو اذ لا يستطيع بلوغ ما ينشد وكل مـا ينشد غدا او بعد غد يكتفي بالنقمة والتبـرم واليـأس والضياع بدلا من انه يحاول الوصول الى هدفه من خلال عمل يومي متصل ونضال دائب طويل النفس يعد للامـر عدته بروح مطمئنة واثقة لانها تدرك الطريق وترى العقبات وتناضل في سبيل قطع المسافات وتكسير الصعوبات . ولعل خير شعار نتخذه شعار « لافونتين » فـي قصته الشهيرة ، نعني الارنب والسلحفاة ، حين قال : « تعجلوا ولكن بتؤدة وبشجاعة لا تعرف الكلل » . وهذا كله يفترض قيادة للمعركة تؤمن بهذه الاهداف ويترابط لديهـا الفكر الواعي بالعمل السياسي ويتفاعلان ، بل يقود لديها الفكـر السياسة وتغدو السياسة عندها جزءا لا يتجزأ من الفكر في حال تحركه ونضجه واتضاح اهدافه . واذا كان خير المفكرين ليس بالضرورة خير السياسيين فمن الحـق أن السياسي لا بد ان يكون من المفكرين ولا بد ان يتحد لديه الفكر مع السياسة ...

هذه صوى شتيتة حاولنا ان نزرعها هنا وهناك عبر طريق الخلاص . ولا سيما ان حديث النكسة حديث معقد لا بد ان تسهم في توضيحه عقول كثيرة واقلام عديدة . غير ان الذي لا مناص منه ان تبدأ الاقلام فـي ان تجوس ارض المعركة وتدرك ابعادها وتعمل شيئا بعد شيء علـى توضيح معالم الطريق . الشيء الذي لا مناص منه خاصة بعد هذه النكسة الاليمة ان يقوم نقـد جريء وايجابـي لاسباب النكسة يكون نقطـة الانطلاق لتوضيح المعالـم المحسوسة والتفصيلية للطريق الجديد . المهم ان لا يبقى الفكر بعد النكسة كما كان قبلها محجوب الضياء معطـل القوى تابعا لا مبدعا مثقلا بارهاب التيارات الديماغوجية التي تستغل الفساد الموجود وتتخذ منه سندها وقوتها ، بدلا من ان تقف بجرأة امام هذا الفساد لتعالجه وتداويه شيئا بعد شيء ، ولتجعل مـن التأييـد اللاواعي تأييدا يندس فيه بالتدريج نور الوعي والفهم وتصلحه روح النقد والحوار والاستقلال والموضوعية التي علينا ان نبدأ ببثها بين الجماهير ولدى الاجيال الناشئة علـى اوسع نطاق ممكن . **ان الجرأة الصادقة فـي تحليل تجاربنا مهمـة مقدسة ينبغي ان يضطلع بها المفكرون فـي هذه المرحلة .** وكل احتماء بالاساليب التقليدية القديمة واصرار علـى معالجة الامور بروح التعمية والغموض والدعاوة السطحية معناها ان يخون المفكرون فكرهم وقضيتهم وان يؤثـروا السلامة على خوض المعركة ، معركـة المصيـر الـذي يستصرخنا من الاعماق ويطلق صيحات الاغاثة المدوية .

بيروت

الدائم

صدر حديثا

دراسات في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب